كتيبة الإسلام

للأستاذ محمد سعيد العريان

مضى الركبُ على وجهه يطأ الحزُونةَ ويجوبُ الصخر في المفازة الجرداء، لا يتكاءده سهل ولا جبلٌ، فما هو إلا أن انتهى إلى «ثنيّة المرار» من أسفل مكة، حتى حطّ رحاله ووقف ينظر ما يكون من أمره وأمر قريش ...

أربعَ عشرةَ مائة من أصحاب محمد عليهم الدروع والحلق، وفي أيديهم سيوف طالما رويت من دماء المشركين علاً بعد نهل؛ لو شاءوا لدخلوا «مكة» دخول الفاتح لا يقف دون غايته شيء ولا يثبت له بطل؛ ولكن محمداً وأصحاب محمد لم يَسموا مَسامّ ذلك الحرب يَحْشُون نارها في الشهر الحرام في البلد الحرام؛ وإنما جاءوا معتمرين حاجّين يدعون دعوة السلام في دار الأمن والسلام ...

أفترى قريشاً وقد أخرجت محمداً وأصحابه بليل، منذ ست سنين فأجلتهم عن ديارهم وأموالهم عنوة، تأذن لهم اليوم أن يدخلوا البلد الحرام في عدّة وعَدد ليستلموا ويطوفوا ويدعوا دعوتهم بين سمع العرب وبصرها؟ ...

وكتّبت قريش كتائبها وأجمعت أمرها على أمر؛ وخرج بنو عبد مناف وأحلافهم في جلود النمور، معهم النساء والولدان، يقفون لمحمد على الطريق معاهدين ألا يدخلها عليهم عنوة أبداً!

ونظر محمد إلى أصحابه عليهم الدروع والحلق، وأيديهم على مقابض سيوفهم يريدون أن يقابلوا عدواناً بعدوان؛ ثم ارتد نظره إلى قومه الذين فارقهم وفارقوه، قد اجتمعت جماعتهم هناك تترقرق دماؤهم بين الحمى والترائب؛ ثم هتف محزوناً أسوان: «يا ويح قريش! لقد أكلتهم الحرب! فما تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة!»

***

هنا جيش وهناك جيش، والرسل ما تزال ساعية ذهاباً وجيئة تحاول (الهدنة) بين المعسكرين المتعاديين، حفاظاً على حرمات الشهر والبلد؛ وهدأت فورة الدم حيناً ريثما ينتهي أمر المتفاوضين إلى أمر؛ ولكن هناك، في مكة، على مسيرة ساعة أو بعض ساعة، كان بضع عشرات من المسلمين يعض الحديد على أرجلهم، ويعانون ذلّ الأسر في ظلمات فوقها ظلمات؛ أولئك جماعة من المستضعفين قد تقطعت بهم الوسائل، فلم يهاجروا فيمن هاجر من المسلمين إلى المدينة، وضُرِب عليهم أهلهم ومواليهم بسور ليس له باب، يجرعونهم الذل ويسومونهم سوء العذاب ليفتنوهم عن دينهم؛ ولكنهم صُبُرٌ على الضراء، مؤمنين بأن يوماً قريباً يوشك أن ينطلقوا فيه من إسارهم إلى حيث يعبدون الله جهرة، ويتملون وجه محمد وأصحاب محمد ...

متى الميعاد ... ؟

كذلك راح كل واحد من هؤلاء الأسارى يسأل نفسه؛ فما هو إلا أن جاءهم النبأ بأن محمداً وأصحابه قد بلغوا ثنية المرار من أرض الحديبية، حتى راح كل منهم يأمل أملاً ويتمنى أمنية، ومضى يُعد عدته لأمر؛ أليس جيش محمد يوشك أن يدخل مكة فاتحاً منصوراً لا يقف له شيء؛ فما بقاؤهم في الذل والإسار بعد؟

***

... وانتهى المعسكران إلى شروط الهدنة الموقوتة، وراح محمد يملي على كاتبه:

«هذا ما صالحَ عليه محمدُ بن عبد الله سهيلَ بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض؛ على أنه من أتى محمداً من قريش

بغير إذن وليه ردّه عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه ... ! »

ووثب عمر بن الخطاب كالملسوع يقول : عَلامَ نُعطي الدنيَّةَ في ديننا ؟

قال محمد : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعني ... !

ومضى الكاتب يكتب ... ولاح شبح من بعيد يتقارب ، تُجاذبه أثقالُ الحديد في رجليه ؛ وطلع فتى أشعثُ أغبر على وجهه قترة وفي عينيه ذبول ، فما هو إلا أن لاح له مجلس محمد وأصحابه حتى تراى عليه وهو يهتف : الحمد لله الذي آمنني بك يا رسول الله من ذل الإسار وعَسف الكَفَرة !

ذلك « أبو جندل » بن سهيل بن عمرو ، قد فر من أسر المشركين إلى رسول الله يستعينه على الخلاص ...

وصمت محمد ، وغمغم أصحابه بكلام ؛ ونظر إليه أبوه سهيل ابن عمرو وقال وفي لهجته شماتة وسخر : هيهات أن يُؤمِّنَك محمد بعد ! ...

وعاد الفتى إلى محبسه وبين جنبيه همٌّ يضيق به !

***

وكان ثمة رجل آخر يتربص ، ذلك « أبو بصير » بن أسيد ابن جارية ؛ إن الحديد ليمض على رجليه في محبس بني زهرة بمكة منذ سنوات ؛ فتى يحن له الخلاص بنفسه ودينه ؟

وجاءه ما كان من أمر «أبي جندل» وما حكم فيه رسول الله ، ولكنه لم يجزع

وآب النبي في صحابته إلى المدينة وإن قلوبهم لتفور بالحقد والحفيظة ، فلولا أن رسول الله نهاهم لما انتهوا عما أرادوا ؛ وتوزعتهم خواطر وهموم ، وثقل عليهم ما يلقى إخوانهم هناك ، ولكنهم طائعون لأمر الله ورسوله !

... ووجد أبو بصير سهوة من حراسه فحطم أغلاله ومضى ، وتقاذفته الفلوات وحيداً بلا زاد ولا راحلة ، حتى بلغ يثرب ، وإنه ليعلم ما هناك ...

وجدّ الطلب في أثره ، فما أدركه قومه إلا وهو في أمان محمد ، وما كان أمان محمد ليغني عنه وذلك العهدُ بين محمد وقريش قائم ، ولكن أبا بصير قد أعد عُدته لأمر ... ...

وجاء رسولا بني زهرة يذكّران محمداً العهدَ القائم ويطلبان إليه أن يرد أبا بصير إلى قومه ؛ وما كان لمحمد أن يغدر بما عاهد عليه القوم ...

... وطأطأ أبو بصير رأسه وعاد مع الرسولين أدراجه وعيون المسلمين تشيعه بالدمع ، وإن قلوبهم لتفيض بالألم والحسرة ؛ ولكن أبا بصير لم يلبث أن عاد إلى المدينة وحيداً وعلى ظُبةِ سيفه دمٌ يسيل ! ...

وماذا على محمد بعدُ وقد وفى بما عاهد عليه القومَ فرد إليهم رجلهم ثم اختار الرجل لنفسه ؟

حرٌّ انتصر فلا جناح عليه !

وافتر ثغر النبي عن ابتسامة وهو يقول : « ويلُ أمِّه مِسعَرَ حرب لو كان معه رجال ! »

وسمعها أبو بصير فوعاها ، ثم ودع صحابته ومضى لأمره وما تزال يده على قائم السيف ...

***

وعلى سيف البحر من ذي المروة ، كَمَنَ أبو بصير كُمونَ القدَر يتربّص لكل رائحة وغادية

« ويلُ أمِّه مِسعَرَ حرب لو كان معه رجال ! »

كلمة تجاوبت بها نسائمُ القفر بين مكة ويثرب ، فإذا صداها يتردد بين جدران المعاقل والسجون حيث يرسف المستضعفون من المسلمين تحت حكم قريش ؛ فتلقفتها آذانٌ ووعتها قلوب ...

« بلى ، إن معه لرجالاً لا يريدون شيئاً إلا كان ! »

ذلك كان رجعُ الصدى !

وفي ظلال صخور الحرة من ذي المروة على سيف البحر ، كانت جموع تتجمع ؛ وكما تجتمع الظلال ثم تفترق فتراها العيون ولا تلمسها الأيدي ، كان أبو بصير وصحابته ؛ وانطلق السجناء من عقابيلهم يدّرعون الظلماء من كل حَدَب ليجتمعوا بذي المروة ؛ وركز أبو بصير رايته في الوادي الأفيح يستظل بها بضعُ عشرات مرابطين على طريق قريش لكل غادية ورائحة ؛ وانثال عليه المددُ ، فإذا العشرات بضعُ مئين ؛ وعسكرتْ « كتيبةُ